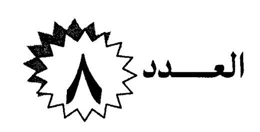
سلسلة

رحـــلات ابـــن بطــــوطة



ابن بطوطة

من الشرق إلى الغرب

نـوال مهنـى

الناشر

دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع (القاهرة)

عبده غريب

الكتـــــاب :سلسلة رحلات ابن بطوطة
المـــولـــف : أ. نوال مهنى
تاريخ النشر : ١٩٩٩م

الناشـــــر : دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع
عبده غريب
شركة مساهمة مصرية

الإدارة : ٥٨ شارع الحجاز – عمارة برج آمون
الدور الأول – شقة ٦
ت ف : ٢٤٧٤٠٣٨ ، ت : ٢٤٦٢٥٦٢
التوزيـــــع : ١٠ شارع كامل صدقى الفجالة (القاهرة)
ت : ٥٩١٧٥٣٢ ص. ب : ١٢٢ (الفجالة)
المركز الرئيســـى : مدينة العاشر من رمضان
المنطقة الصناعية (C1)
ت: ٠١٥/٣٦٢٧٢٧ ص.ب : ١٢٢ (الفجالة)
رقـــم الإيــــداع : ٩٩/٢٣٧٨
الترقيـــم الدولـــى : ISBN
977-303-085-7

ابن بطوطة وبداية الرحلة

قرر أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الطنجى الشهير بابن بطوطة القيام برحلة طويلة لزيارة البلاد ومعرفة أخبار العباد وأقنع والديه بأنه مسافر لأداء فريضة الحج فسمحا له وخرج من بلدته طنجة بالمغرب قاصداً مكة. وحين خرج ابن بطوطة للرحلة لم يكن معه سوى بضعة دنانير وفى عصره كانت الزوايا والتكايا تعطى بلاد العالم الإسلامى فكان ينزل ضيفا عليها وعلى الأولياء والمشايخ وأصحاب الطرق الصوفية فكانوا يستضيفونه ويرحبون

به. وفى عصر ابن بطوطة لم يكن الناس يسافرون إلا للأمور الهامة مثل الحج والتجارة ولم يكن السفر للسياحة والرحلات أمراً شائعا أو سائغا. ولكن ابن بطوطة كان يهوى السفر والتجوال وكان شخصية ظريفة طريفة بمقاييس عصره. واستمرت رحلته خمسة وعشرين عاما وبلغ طولها مائة وأربعين ألفا من الكيلو مترات زار خلالها معظم بلدان العالم القديم ورأى خلالها من العجائب والغرائب ومن الطرائف واللطائف ما لم يره غيره وتعلم خلالها عدة لغات وتعرض للهلاك عشرات المرات، ولكنه نجا بفضل قوة صحته لم ينظم ابن بطوطة

رحلته على أساس جغرافى فلا فرق عنده بيـــن بلد وآخر ولم يشغل نفسه بـــالعمل أو التجـــارة ولكنه تفرغ للسياحة والمشاهدة فكانت رحلتـــه دينية اجتماعية ولم تكن مـــن أجـــل كشـــوف جغرافية أو بحوث علمية. وكـــان عمـــر ابـــن بطوطة وقت خروجه للرحلة اثنين وعشـــرين عاما وحينما عاد قابل سلطان البـــلاد فأكرمـــه وأعجب بأخبار الرحلة وأمره بتسجيلها، وحيـــن انتهى من كتابتها أسماها (تحفـــة النظـــار فـــى غرائب الأمصار) فعهد السلطان إلى وزيره عبـــد الله بن جزى وكان كاتبا أديبا بصياغة الرحلـــة بأسلوب أدبى وتهذيبها ففعـــل. وكـــان زمـــن

الرحلة القرن الرابع عشر الميلادى، ويعتبر ابن بطوطة رحالة العرب والإسلام فى العصور الوسيط ولا زالت أخبار رحلته العجيبة المدهشة تشغل العالم حتى الآن فهيا بنا نطوف معه ونتابع رحلته.

المؤلفة

نوال مهنى

ابن بطوط من المشرق إلى المغرب

شعر صديقنا ابن بطوطة بالاجهاد والتعب الشديد بعد أن قضى قرابة الربع قرن غريباً سائحاً فى بلاد الله بين الصحارى، والجبال، والسهول، والوديان، والشواطئ، والبحار، والمدن، والقرى.

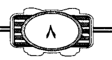
وكان حنينه إلى بلاد المغرب بدأ يزداد فجلس يفكر فى هذه الأمور، ويستعرض الأهوال التى جرت به فى هذه البلاد التى تعتبر أخر حدود الدنيا جهة الشرق.

وتذكر أبيه وأمه وكيف تركهما فى بلدته طنجة وأصدقاءه، وكيف ودعهم ولم يرهم أو يسمع عنهم بعد ذلك.

وتذكر كيف خـــرج شـــاباً فـــى الثانيـــة والعشرين حين بدأ رحلته الطويلة، وهـــا هـــو الأن وقد قارب الخمسين من عمره، وهو يعيش فى بلاد غريبة وخاف أن يموت غريبـــاً كمـــا عاش غريباً.

كان ابن بطوط فى ذلك الوقت فى جزيرة جاوه الصغرى بعد عودته من بـــلاد الصيـــن فقرر العودة إلى بلاد العرب، وتوجه إلى البحر بعد أن ودع أصدقائه، ومعارفه، وجمـــع مـــا يلزمه فى هذه السفرية وهى رحلة العودة مـــن أقصى المشرق إلى أقصى المغرب.

واستقل سفينة متجهة إلى الغرب. وظلـــت حوالى الشهر تسير فى البحر؛ حتى وصل إلـــى



الخليج العربى، ثم فى الطريق مر ببلاد الشام ودخل دمشق، وعلم أن بها فقيها من أهل طنجة وهى بلد ابن بطوطة فذهب لزيارته ليسأله عن أهله ويعرف أخبارهم، وبعد أن سلم عليه وعرفه بنفسه سأل عن أبيه وأمه فأخبره الفقيه أن أباه قد مات من خمس عشرة سنة أما أمه فمازالت موجودة على قيد الحياة.

فحزن كثيراً وعزم على العودة إلى مراكش (بلاد المغرب)، وأثناء وجوده فى الشام حدث وباء كبير، وانتشر فى معظم بلاد العالم، وكان عدد الوفيات فى اليوم الواحد يقدر بالآلاف فى كل مدينة من مدن الشام.

وسأل ابن بطوطة عن أصدقائه ومعارفـه الذين قابلهم أثناء رحلة للشام، فعرف أنهم ماتوا جميعاً فتشاءم وتابع سيره فى طريـــق العـــودة حتى وصل إلى القاهرة ووجد أن الوباء قد زال عنها، وعرف أن عدد الوفيات من هذا الوبـــاء قد بلغ واحد وعشرين ألفا فى اليوم.

بقى ابن بطوطة فى القاهرة عـــدة أيـــام، وكلما سأل عن أحد من علمائـــها ومشـــايخها عرف أنه توفى. فهب إلى القرافة بلغـــة أهـــل القاهرة، ويقصد بها المقـــابر فـــزار الأوليـــاء الصالحين ممن يعرفهم أو سمع عنهم. وأعجـب ابن بطوطة كثيراً بالقرافة. ورأى فيها الأســوار حول كل مقبرة وفوقها قبة، وفى مدخل الســـور

تبنى غرف صغيرة، وكــان سـكان القــاهرة يخرجون كل جمعة لتوزيـــع الصدقــة علـــى الموتى، وزيارة قبورهن، ووضع فروع الشجر وسعف النخيل والورود على الشــواهد. وهــذا النظام المتبع فى مصر غير موجود فـــى كــل بلاد الدنيا التى زارها ابن بطوطة.

وكانت مصر فى ذلك الوقـــت يحكمـــها أمراء المماليك البحرية، وكانت علـــى جـــانب كبير من الجمال والثراء، وتجول ابن بطوطـــة بالقــاهرة وزار الجــامع الأزهــر، ثـــم زار المارستان المنصورى الذى يقع بين القصريـن، وقد بناه الملك المنصور قلاوون، وهو مستشفى

عظيم فيه الأطباء والمرافق والأدويـــة لعـــلاج الناس، وكان ينفق عليه يومياً ألف دينار.

ودع ابن بطوطة القاهرة وتابع سيره نحو المغرب فركب قرقوره أى مركبة كان صاحبها تونسى الأصل، فوصل بها إلى جزيرة جربـــه فى تونس، ثم تركها إلى مدينة تونس العاصمة، ثم سار برا مع بعض القوافل حتى دخل بـــلاد المغرب.

وفى الطريق قابل ابن بطوطة تاجرا مـــن بلدته فسأله عن أمه، فاخبره التـــاجر أن أمـــه توفيت فى الوباء الأخير الذى عم البلاد ومـــلئت بسببه نفوس كثيرة.

وحزن ابن بطوطة، وتمنى لو أنه حضر قبل وفاة أمه ورأها وحكى لها عن أحواله.

وهكذا دخل ابن بطوطة أرض المغرب قبل أيام قليلة من حلول شهر رمضان عام ٧٥٠هـ وكان موافقاً لنوفمبر ١٣٤٩م بعد غياب طويل ورحلة طويلة حافلة بالأحداث والأخبار.

فماذا فعل فى المغرب بعد وصوله إليها ؟

أول شئ فعله هو زيارة قبر والدته فى طنجة ثم قصد إلى سلطان المغرب أبو عنان فارس المتوكل يريد التعرف عليه، وتمكن من مقابلته بمساعدة الوزير أبن جُزى، وهذا الوزير كان كاتباً وأديباً، فسعى إلى الملك،

وقدم له ابن بطوطة، وراح صديقنا ابن بطوطة يحكى للملك عن أخبار رحلته وما لاقاه من متاعب ومصاعب وما شاهده من غرائب وعجائب وكان غرض ابن بطوطة من التقوب إلى الملك هو الإنضمام إلى حاشيته والحصول على المناصب الرسمية، وفكر ابن بطوطة وقال فى نفسه:

أننى فى بلدى مراكش لا أستطيع النزول فى الزوايا والمدارس والعيش فيها كما كنت أفعل وأنا غريب بعيداً عن أهلى ووطنى، كما أننى لا أجيد العمل بأى مهنة أو حرفة فقد قضيت العمر رحالة أطوف بالبلاد، ثم أننى أريد أن أحدث الناس بأخبار رحلتى وأحصل

على الشهرة اللائقة بى وبرحلتــى، ولا ســبيل لكل ذلك إلا بالتقرب من الملك فكــان يــزوره ويجلس معه، ويحكى له من النوادر والطرائـف التى شاهدها وسمع بها أثناء الرحلة، وأعجــب به الملك وطلب من وزيره أن يجعلـــه ضمــن حاشية الملك وطلب منـــه أن يكتــب رحلتــه ويسجلها، ثم حدد له راتباً يعيش منه.

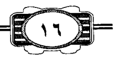
وسمع ابن بطوطة أخبـــاراً قادمـــة مـــن الأندلس عن موت الطاغية الفونسو ملك الــووم نتيجة للوباء الذى ساد وعم العالم كله.

وكان الفونسو يريد الاستيلاء على ما بقى من بلاد الأندلس فظل محاصرا لجبل طـــارق حوالى عشرة أشهر حتى مات بالوباء.

وفكر ابن بطوطة فى نفسه وقال: كيف أزور بلاد الدنيا البعيدة ولا أشاهد الأندلس المجاورة لبلادى وقرر أن يقوم برحلة لبلاد الأندلس ليتعرف على أحوال أهلها ويشاهد معالهما.

وعبر ابن بطوطة البحر ووصل إلى جبل طارق. وهذا الجبل سمى بإسم البطل العربى طارق ابن زياد الذى فتح الأندلس. (وهى أسبانيا الحالية).

ورأى ابن بطوطة التحصينات التى أقامها المسلمون وسلطان المغرب دفاعاً عن مدينة جبل طارق، ورأى القلعة الموجودة فوق قمة الجبل والذى بناها سلطان المغرب أبو الحسن



والد السلطان أبو عنان فارس المتوكـل الـذى قابله ابن بطوطة.

وراح ابن بطوطـة يتجـول فـى مـدن الأندلس وقراها، وأكثر ما أعجبه فـى مدينـة مالقه الفاكهة الجميلـة مثـل التيـن والرمـان الياقومى والنارنج ــ (البرتقال).

وكانت بلاد الأندلس حين زارهـا ابـن بطوطة تمر بحـروب طاحنـة بيـن العـرب والفرنجة. فقد أقام العرب فى هذه البلاد ثمانيـة قرون كاملة أقاموا خلالـها حضـارة عريقـة وأنشاءوا المدن العظيمة مثل قرطبة وغرناطـة وأشبيليه وعن طريق العرب انتقلت حضـارة الشرق إلى أوربا ــ وظهر فى بلاد الأندلـس



علماء وشعراء كبار مثل الإمام القرطبى، والشاعر ابن زيدون، والمعتمد بن عباد وهو من ملوكها — وفى الأندلس ظهر فن الموشحات الذى اخترعه الأندلسيون لأغراض الغناء.

وأعظم ما خلفه العرب من آثار فى بلاد الأندلس هو قصر الحمراء. وانتهت دولة العرب والمسلمين فى الأندلس نتيجة لتفكك وتفرق الملوك والأمراء العرب وكثرة الخلافات بينهم والتآمر على بعضهم. مما أطمع الفرنجة فيهم حتى تمكنوا من بلادهم.

وصديقنا ابن بطوطة فى زيارته للأندلس كان حزينا على أحوال العرب بها وما أصابهم



من التدهور والتفرق، ومر بقرية صغيرة تقـــع فى مروج غرناطة أسمها عين الدمـــع، وهـــى موضع فوق الجبل تحفة الأشـــجار والريـــاض والبساتين، فمكث بها بضعة أيام يستريح، ولـــم يطل ابن بطوطة المقام فى الأندلس، لأن البقـاء فى هذه البلاد غاية فى الخطورة، فقـــد كـــانت الحروب والفتنة منتشرة. فقـــرر أن يختصـــر الرحلة، ويعود إلى بلاده مرة أخرى كى يبـــدأ كتابة أخبار الرحلة كما أمره السلطان، وقبـــل الخروج من الأندلس قابل أحد أعمامـــه هنـــاك وكان قاضياً فرحب به وأكرمه وأخبره بأحواله ونيته فى العودة إلى فاس عاصمة المغرب فـــى ذلك الوقت.

وعاد ابن بطوطة وقرر الاستقرار نـــهائياً فى مراكش وهى دولة المغرب العربى الحاليـــة وتسلم عمله فى حاشية السلطان بمدينـــة فـــاس عاصمة المغرب أنذاك.

وابن بطوطة ينتسب إلى بيت فقهاء فـــهو يرجع بنسبه إلى أسرة تولى أغلـــب أفرادهـــا القضاء، ودرسوا الفقه ويتمعون بتقدير كبـــير من الناس، فقد كان أبوه فقيها، عمـــه قاضيـــاً وابن بطوطة نفسه درس الفقه، وأتمـــه أثنـــاء رحلته وأن كانت دراسته غير منهجيـــة مثـــل أقرانه الذين استقروا فى بلادهم ولكنـــه قـــابل الشيوخ والعلماء واستمع إليهم أثناء صحبته لهم وأخذ عنهم الكثير، ثم أنه حفظ القرآن الكريـــم

وهو طفل، وكان أبوه يتمنى أن يصـــير أبنـــه فقيها مثله ــ ولكن حب ابن بطوطة للرحـــلات والأسفار غير خطته ونظام حياته كلها.

المهم أن ابن بطوطة بـــدأ فـــى تســـجيل رحلته، فكان كلما أنتهى من جزء أعطاه إلـــى الوزير ابن جُزى، فيقوم الوزيـــر بمراجعتـــه وتنقيحه وصياغتـــه بأســـلوب أدبـــى ظريـــف وعبارات جذابة.

ولما انتهى من التدوين والتسجيل، وانتهى الوزير من الصياغة والمراجعة قـــرر تســـمية الرحلة)

(تحفة النظار فـــى غرائـــب الأمصـــار وعجائب الأمصار)، وكان الانتهاء من الكتابـــة

والمراجعة فــى ذى الحجــة ســنة ٧٥٦هــــ الموافق ديسمبر ١٣٥٥م.

وبعد ذلك عرض ابن بطوطة الرحلة على السلطان فأمر بمكافأة عظيمة قدمها له.

وأمر السلطان بتسمية الدرب الذى ولـــد فيه ابن بطوطة بأسمه، ولا زال هــذا الــدرب موجود فى طنجة حتى الأن واسمه درب ابـــن بطوطة.

ويعتبر ابن بطوطة أكبر وأشهر رحالـــة عربى حتى الأن وقد سبقه الرحالة ابن جبـــير بمائة عام ولكن رحلة ابن بطوطبة كانت أطول وأهم من رحلة ابن جبير لأنها حافلة بالتفاصيل المستفيضة والأخبار الطريقة.

وقد أهتم علماء الغـــرب بـــهذه الرحلـــة ودراستها وتحقيقها وعمل خرائط توضح مسار ابن بطوطة وأسماء المدن والدول لأن الخريطة السياسية تغيرت كثيرا وتغيرت كذلك الطـــرق وأسماء البلد بعد أن مضى على هـــذه الرحلـــة أكثر من ٦٠٠ عام.

وكذلك حاول علماء أفاضل دراسة رحلـــة ابن بطوطـــة وتوضيـــح أهميتـــها وفوائدهـــا. والاعتراف بفضل هذا الرجل الذى وهب نفســه وحياته لمهمة صعبة لا أحـــد يعـــرف مـــدى الأخطار التى تحيط بها، ولكـــن يبـــدو أن الله وهبه ما يعينه على هذه المهمة من قوة الجســد ووفرة العافية والقدرة على التحمـــل ومقاومـــة

الأمراض والصبر والرضا بمـــا هـــو متـــاح والقدرة على التكيف مع الظروف الاجتماعيـــة والمناخية المختلفة. والأهم من ذلك كله نفســـه التواقة إلى المعرفة وحب المغامرة وطموحـــه إلى السفر ومشاهدة الدنيـــا، والإطـــلاع علـــى أحوال الناس وكلها دوافع نبيلة تجعلنـــا نقـــدر شخصية ابن بطوطة.

والعجيب أن ابن بطوطة قام بهذه الرحلـــة وقدم تقريرا مفصلا عن أحوال العالم بمفـــرده، ودون أن يمتلك أموالا تعينه على ذلك، فحيـــن خرج من بلده ليبدأ رحلته لم يكن معه ســـوى دنانير قليلة. مع أن العمل الذى قام به يحتـــاج إلى هيئة متخصصة مـــن العلمـــاء والبـــاحثين

ويحتاج إلى مال وفـير ومراجـع لا تحصـى وإتفاقات ومساعدات مـن الـدول المختلفـة. ويحسب له أنه كان دقيق الملاحظة فكان يصف كل ما تقع عليه عينه من أشياء وصفـا دقيقـا مفصلا.

فوائد الرحلة وأهميتها :

س : ماذا نستفيد من قراءة رحلة ابن بطوطة؟

ج : ١- قدم لنا صورة عن العالم الإسـلامى فى ذلك الوقت تعتبر مرجعا مهما عن هذه الفترة وهى القرن الرابع عشـر الميلادى.

٢- معرفة أسماء البلدان وأنظمة الحكم المختلفة لكل بلد وأيضا معرفة العملة المتداولة فيها.
٣- معرفة أنواع الفاكهة والمأكولات في كل بلد.
٤- معرفة معالم البلاد ومبانيها في عصره حتى نتبين ما بقى منها وما خرب.
٥- معرفة أزياء الشعوب المختلفة في الشكل والخامة.
٦- معرفة الأعياد والمناسبات وطرق الاحتفال بها.
٧- معرفة تقاليد وعادات الشعوب المختلفة.

٨- معرفة طرق التداوى فى عصره والوقاية من المرض.

٩- معرفة أسماء الطيور والحيوانات فى العالم فى العصر الوسيط وفى البلاد المختلفة.

١٠- معرفة مدى الترابط والتكامل الذى كان يعم العالم الإسلامى فى ذلك الوقت من خلال شبكة الزوايا والتكايا والمدارس التى كانت مفتوحة لكل غريب وعابر سبيل، فكان يلقى الرعاية والحماية وكل مطالب الإقامة بفضل التعاطف والبر اللذين أوجدهما الإسلام فى نفوس المسلمين. فكانوا جميعا أخوة رغم اختلاف الجنس واللون واللغة.

ولولا هذا الترابط لما استطاع ابن بطوطة أن يقوم برحلته الفريدة التى جعلت منه واحـــدا من أعظم رحالات القرن الرابع عشـــر، ولمـــا تيسر له أن يطوف بالعالم القديم، ويقدم لنا هـذه الرحلـــة الممتعـــة، وتلـــك الأخبـــار المفيـــدة والحكايات الغريبة العجيبـــة المدهشـــة. التـــى جعلت منه بحق رحالة العرب والمسلمين.

☆ ☆ ☆